على عهد الدهر

لماذا ؟

رواية لبنانية تاريخية

بقلم فؤاد افرام البستاني

وقد يكون من الابناء ضحايا في سبيل آبائهم
من حيث لا يعلمون

الفصل الثالث

بدور وغانم (تابع)

استعدّت السيدتان لوصول الزائر العزيز ، ولبثتا منتظرتين نحو الساعة فلم يحضر . فقلق بالهما وجعلت الافكار المختلفة تنتاب مخيلتيهما المختلفتين ايضاً . كانت سعدى تعرف ان البلاد في حالة حرب لا يُعرف مصيرها ، وان حزب الامير بشير او حزب زوجها وصديقه الشيخ بو غانم ، يقوى يوماً ويضعف آخر ، وان الجزّار لم يرضَ عنه بعد ، فخافت ان تكون تلك الزيارة غير المنتظرة نتيجة معركة سيئة ، او مؤذنة بعقدة جديدة من عقد تلك السياسة الصعبة . اما بدور فلم تكن لتنتبه للسياسة وملاويها ، ولا للحرب واهوالها . ومع ذلك فانها كانت قلقة جداً . ولم يكن من سبب للقلق سوى انها خافت ان يكون ابوها غضب على غانم فمنعه من زيارتها ... سببٌ تافه لمن فكر بعقله . ولكنها لم تكن تفكر حينئذٍ الا بقلبها ، فلا تتصوّر الّا ذاك السبب

على ان مجرى تلك الافكار المشؤومة لم يطل ، اذ قطعه صوت غانم يدوّي في الممرّ الخارجي مداعباً كلب بدور . فسرّي عن الاثنتين والتفتا الى جهة الباب ، فوقف نظرهما على الامير بجهاه ، والى جنبه الشاب وقد افترّ ثغره ،

وغرقت عيناه في حجاجيهما وراء وجنتيه المنفرجتين من الفرح والسرور . وكانت اولى حركاته ان اكبّ على يدّ « امرأة عمه » يقبلها ، فقبلته في نقرته داعيةً له ، سائلةً عن جدّه . ثم مدّ يده الى بدور فتلقتها باضطراب ظاهر ، بعد ان اطرقت حياء مجيبةً بكلمات متقطعة خافتة عن السؤال عن صحتها ، الذي القاه غانم بكلمات لا تقل تقطعاً وخفوتاً

وبعد ان دار الحديث دورته فبدأ بالاسئلة عن الأسرتين جميعاً ، وانتقل الى الاحوال السياسية ، والاشاعات المختلفة عن مساعي ابناء الامير يوسف ، ومقاصد الجزّار ، مما لم يكن يهمّ غانماً ولا بدوراً ، ظهرت بوادر الصمت على هاذين . وكان الامير جهجاه يفكر باعداد مطلوب الشيخ بو غانم ، فترك الردهة واعداً بقرب الرجوع ، وخرج الى غرفته الخاصة بعد ان دعا امينه سعداً وبدأ بتعبئة المال في اكياس من التبن

* * *

ثم خرجت الست سعدى الى المطبخ تلقي على الخدم بعض الاوامر لتهيئة الغداء . فلم يبقَ في الغرفة الّا بدور وغانم ، وكأن رهبة اللقاء غير المنتظر عقدت لسانيها فلبثا صامتَين دقائق كلّ يهمّ بمخاطبة الآخر ، فيهاب ان يقطع مجرى افكار رفيقه ، حتى تململت بدور فقالت :

— ولماذا لم تعلمنا بزيارتك هذه يا غانم ؟

فاضطرب هذا قليلًا ، والتفت اليها بسرعة ، مرتاحاً الى الخروج من ذاك الموقف الصعب ، فقال :

— لانني لم اكن افكر بالمجيء اليوم ! ولم يعلمني جدي بضرورة هذه الزيارة الّا امس مساء

— لا بأس عليك ! وستعوّض عن هذا التقصير غير المقصود بطول الاقامة عندنا

فهزّ غانم رأسه ونظر اليها بعينين احاط بهما اليأس ثم اجاب بصوت ترجرجت فيه نبرة الاسف والاستسلام

— يا ليت !

وسكت ...

فنظرت بدور مضطربة واجفة ، وحدقت اليه مستفهمةً بكل جوارحها ، فتابع :

— دعاني جدي امس مساء فأخبرني بوجوب المجيء اليكم هذا الصباح ، وامرني بالرجوع باسرع ما يمكن من الوقت . وانا لولا احترامي ارادة الامير جهجاه لما انتظرت حتى الآن

فلم تفهم بدور غاية هذه الزيارة ، ولا سبب ذاك الامر بالرجوع السريع . ولكنها لم تشأ التطفل ، لعلمها ان في علاقات الرجال اموراً لا يجدر بالنساء التشوّف اليها . ولكنها احست بما ظهر على ملامح غانم من الاسف على تركه بيت الامير جهجاه ، وشعرت بما بدا من كلماته من الايجاس من تلك السفرة . ففهمت ، بفضل تلك الحاسة الشفّافة الدقيقة التي تختصّ بها النساء ، فيدركن الخطب قبل وقوعه ، ويتنبّأنَ — اذا صحّ التعبير — عن المصيبة قبل نزولها . حدّثها قلبها ان غانماً مقدم على خطر غير معروف ، وان بين زيارته لهم وما تحتبئه لها الايام علاقةً محزنة ، وصلةً لم يتضح منها بعد الّا سوء وقعها . اذ ذاك بدت تتلاعب بها اشكال من الظلمات التي تتقدّم الطوارئ النازلة ، فتتنقل بها في انواع الرزايا من قتل ، وحرق ، وسبي ، وخراب ، ويعزّز تلك السلسلة المشؤومة حالة الحرب الحاضرة ، فتظهر تارة جلية تقرب من نتائج المذيان ، وطوراً ملتحفة بستار كثيف من الغموض لا يلبث ان ينبسط واسعاً فيستر عنها كل شيء حتى غانماً نفسه ، فتدخل اذ ذاك في منطقة الظلّ الثقيل المزعج الذي يتقدّم دائماً كل مصيبة فادحة

اما غانم فكان لا يقلّ عنها حزناً ، ولكنه كان يفوقها صبراً واحتمالاً ، لانه يعرف سبب حزنه . فكان ينظر اليها بعطف ، فلا ينكر على سكينتها شيئاً سوى ما يراه من اصفرار الصدغين ، وجود المقلتين . فيندم على تفوّهه بتلك الأنّة ، واصغاءه تلك الزفرة ، ويهمّ بمتابعة الحديث معها . ولكنه يجفل محترماً سكوتها ، اذ يرى نظرها التائه امامه في حنايا الردهة ، الهارب من منافذها الى ما وراء الافق البعيد . ولشدّ ما كان فرحه عظيماً حين سمع وقع

خطوات امرأة عمه عائدة من مهمتهـا ، فتنفس مرتاحاً الى سبب الخلاص من ذاك الضيق بينـا كانت بدور تستعيد قواها بسرعة ، مظهرةً امام امها كل سكينة ووقار .

ولم تلبث الام ان اعادت الحديث الى مجراه السابق صارفةً عن القلبين الفتيين اكثر ما علق بهما من خوفٍ وأسى

* * *

وما قرب الظهر حتى اقبل الامير جهجاه والبشر يتدفّق من وجهه ، فقال لعائم :

— قد تمّ كل شيء !

ثم التفت الى امرأته فسأل :

— وهل الغداء حاضر ؟

فاومأت برأسها ان نعم

اذ ذاك تحوّل الجميع الى قبو فسيح . فترتبعوا على بساطٍ ثمين فرش ارض القبو من الزاوية الى الزاوية . فاقبل احد الخدم بشرشف من الصوف الابيض زُركشت اطرافه بالقصب ، وعلقت في حواشيه دوائر صغيرة من البرق اللماع ، فبسطه امام الجالسين . ورجع حاملاً طاولة قصيرة القوائم من خشب الجوز المصقول المطعّم بغلق اللؤلؤ الصافي ، المنقوش في معامل دمشق . ووضع عليها «صدراً» من النحاس السبيك ، وهو منقوش ايضاً ، وعلى دائره سلسلة مشاهد لبعض المعارك تمثّل الخيّالة بالسيوف والرماح يتضاربون ويتطاعنون . ثم اقبل ثلاثة من الخدم بالصحاف الفخّارية الواسعة فيها الالوان المختلفة من الاطعمة اللبنانية القديمة ، ورائحة الابهار والافاويه تفوح منها هائجةً القابلية . فدار الاربعة حول الصدر يلتقمون بايديهم من الصحاف ، حتى شبعوا ، فرفعت . وقدّم لهم صحفة من العنب «الجوزاني» الفاخر ، وهو نوع ممتاز كان يرغب فيه الامير جهجاه ويبقي قسماً منه الى الشتاء فيقوى على البرد اذا ما «كُبِست» عناقيده بقماش ضابط ، وصحفة من التين المشكل ، مع صحفة قُسم فيهـا رأس من بطيخ بسري المشهور ، فتناول كل كفايته وشكروا . فاتى الخادم بابريق من النحاس

الاصفر المزخرف المخرّم عنقه ، مع طسته ، فغسلوا ايديهم . ثمّ تحوّلوا الى الردهة الأولى

* * *

وبعد ان اديرت القهوة ، تناول الامير ماسورته يلتذّ بدخانها المتصاعد ، واقبل يروي احاديث بعض المواقع المشهورة من التي حضرها بنفسه او سمع روايتها ممن حضرها . والسامعون يتلقّون تلك الحكايات بعجب وسرور ، وقد تملك الانشراح قلوب الجميع

فرح الامير برأى ابن صديقه ، وحفيد صديقه . وفرح لانه اظهر اريحيّته وكرمه بتلك الهبة ، فكان سروره مزدوجاً : سرور رجل أدّى خدمةً نصوحاً لصديق مخلص

فرحت الست بزيارة غانم وما غانم سوى صهرها العتيد ، وولدها المحبوب .

اما غانم وبدور فكانا فرحين وحسب . ولم يكونا ليفتشان عن سبب هذا الفرح العظيم الذي كاد يقشع ما تملك عليهما من الكآبة قبل ذاك ، لو لم يقف الامير فيُعلن للجميع سفر غانم الى عكّا ، بمهمة سياسية مخفقاً ما امكنه وقع ذاك الخبر ، وذكّر بما يكتنف المسافر من المخاطر والمهالك

عند ذاك تحققت بدور سبب اكتئابها السابق ، وتمثلت لها التهلكة بادوع مظاهرها . فعاودها ذاك الجمود في عينيها ، والانجذاب عن محيطها ، حتى انها مدّت يدها لوداع الراحل دون ان تشعر ، اذ اقبل نحوها ، بعد ان ودّع اباها وامها . فشدّ غانم على يدها وأسرع الى الدار حيث كانت الفرس بانتظاره ، مع فرحات الامين ، وأحد خدم الامير يقود البغل الموقر مالاً . فركب مسرعاً ، وسار الجميع صامتين نحو قصر الشربين

الفصل الرابع

مجلس شورى

غابت شمس التاسع والعشرين من تشرين الاول سنة ١٧٩٣ على بضعة عشر فارساً متجهين نحو بيادر دير القمر ، يقودهم ببطء الشيخ قعدان بو غانم ، وعن يمينه حفيده ، وبين يديه خادمه فرحات. وما ان وصلت الكوكبة الى اعالي ديربابا حتى وقف الشيخ وترجل مستعيناً بيد حفيده . فترجل الجميع وحدقوا الى منحدرات الشحّار يفتّشون في معارجها الملتوية ، وبين اشجارها المتكاثفة ، عن خيالات الفرسان

وكان لحسن الحظ ان الضباب لم يتراكم ذاك المساء في الوادي الفسيح ، فظلّ نور الشفق يندفع قوياً من جهة بحر الدامور ، فيصبغ الجبال المقابلة بانوار لطيفة متكسرة تتراوح الوانها من البنفسجي في اعالي القمم ، الى الوردي الزاهر في الاواسط ، الى الرمادي القاتم عند اقدام الجبال . وكانت ذرّات الغبار الدقيقة تتموج في مجرى النور ، على طول الوادي ، فتسدل بين ابصار الناظرين وهدف النظر ، ستاراً شفّافاً متموجاً يغلّف كل ما وراءه ، فيدوّر اطراف الزوايا البارزة ، ويقلّم اغصان الاشجار البعيدة ، فتظهر الجبال كانها تتراجع الى الوراء هاربةً من وقع الابصار . الى ان يتلاشى ما فيها من الطرق والمنعرجات امام هجمات الظلام الاغبر

وقف الخيّالة مدةً امام هذا المشهد بسكون وهيبة ، يسترقون السمع من النسيم الآتي علّه يحمل اليهم حركةً ممن ينتظرون ، الى ان اعياهم الصبر ، وحاروا في سبب هذا التأخر ، فالتفتوا الى الشيخ بو غانم ، وتقدّم منه احدهم فقال :

— ولعلّه يأتي من طريق غير هذا ؟

— لا ! لقد كتب اليّ انه يترك رأس المتن الى عبيه حيث ينزل على الامير قعدان . ومنها يسير الى بشامون فيزور الامير حيدر ملحم . ثم يأتي الينا الليلة . فلا ممرّ له اذن إلّا من هذا الطريق

عند ذلك تقدّم رجل كان بعيداً عن الحلقة ، وقال :

— اتيت الامس من الساحل ، وقد شاع فيه خبر مفاده ان الامير عزم على

التحوّل بالمساكر الى بلاد جبيل . فاستغربت هذا العزم اذ كنت عارفاً بقصده الينا الليلة . واردت تحرّي الخبر فلم اوفق الى تأييده او انكاره ، غير اني سمعته يتردّد بسرعة فيخاف الناس من نتائجه ، ويهتمّ اهل الساحل بتوقّل الجبال ، واهل الجبال بالانحدار الى الساحل . لان ناشر الخبر لم يذكر الطريق الذي يسلكه الامير

ولم ينهِ المتكلم خبره حتى شاهد المجتمعون ، على آخر اضواء الشفق ، ملامح الشيخ بو غانم تنفرج بسكون ، وشفتيه تخطّان تحت الشاربين علامة الاستئناس ، ونور الحبور يلمع من عينيه شأنَ من غامر في امرٍ خطير ونجح النجاح التام . فنظروا اليه مستفهمين ، فقال :

— تلك الشاعة رغب فيها الامير ذاته . ولا يخفى عليكم ان بلاد جبيل لم تطهَّر بعد من نفوذ اولاد الامير يوسف ، فلا تزال بحالة القلق والاضطراب . كما انه لم يحن الوقت لترك بلاد المتن ، ولم يفتأ بعض اللمعيين والنكدية يعيثون فيها . ولمّا كان قصد الامير ان يأتي الليلة لعقد المجلس ، رأى من الموافق ان يذيع بين القوم انه قاصد ناحية جبيل لكي يصرف افكارهم عن الاتجاه الى دير القمر ، بينا يشغلهم في التكهّن عن الطريق الذي يسلكه . فيصيب الهدفين في آنٍ واحد : يدخل دير القمر فيستثير اعوانه ، ويموّه على اعدائه خافياً عليهم وجهة ذهابه

فعلت سيماء الحبور وجوه السامعين ، وهزّوا رؤوسهم معجبين بمهارة اميرهم السياسية ، وكلهم يتمنى ان تقصر دقائق الانتظار فيمتع ناظريه برأى المولى ، ويشنف مسمعيه بصوت الآمر الناهي . ولم تطل تلك التمنيّات حتى شعروا بتحقيقها ، اذ سمعوا وقع حوافر تصعد الجبل بخفة فتتجاوب اصداؤها في المنخفضات . فأنصتوا . واذا بفارس يعلن لهم وصول الامير . فاعتلوا صهوات خيولهم بسرعة ، وجمدوا مصطفّين في مكانهم ، راقبين بين اغصان الزيتون المتبرّة ظهور كوفية الامير

(لها بقية)